درس بعنوان: تفسير سورة الإخلاص

لفضيلة الشيخ الدكتور/ عبد العزيز بن أحمد البداح

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فهذا تفسير سورة الإخلاص ضمن دروس تفسير قصار السور.

هذه السورة لها أسماء المشهور من أسمائها قل هو الله أحد والإخلاص والصمد، وسميت بالإخلاص لأنها خالصة لله في ذكر صفته وقيل لأنها تخلص العبد من الشرك لأنه إذا قرأها أخلص لله في التوحيد، وذكر الرازي أن لهذه السورة عشرين اسمًا فذكر أن من أسمائها التوحيد والتفريد والتجريد والأساس والنجاة والأمان والنور والمعرفة إلى آخر ما ذكره من الأسماء، وذكر وجوه تسمية السورة بهذه الأسماء.

هذه السورة وردت أحاديث في فضلها فمما جاء في فضلها ما رواه البخاري ومسلم أن رجلًا كان يؤم الناس وكان يقرأ بهم في كل ركعة في خاتمة قراءته قل هو الله أحد وفي رواية أنه كان يقرؤها في بداية قراءته، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: سلوه، فقال: إنه يحبها لأنها صفة الرحمن فقال النبي ﷺ: ((أخبروه أن الله يحبه وفي رواية إن حبك إياها أدخلك الجنة)) وجاء عند البخاري أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن ومعنى تعدل ثلث القرآن على المشهور يعني في الثواب فمن قرأها فله ثواب من قرأ ثلث القرآن، ووجه ذلك أن القرآن يشتمل على ثلاثة علوم القصص والأحكام والتوحيد وهذه السورة تشتمل على التوحيد، ويدل على هذا التوجيه ما جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: ((إنَّ اللهِ جَزَّأَ القرآنَ ثلاثةَ أجزاءٍ، فَجَعَلَ (قُلْ هو اللهُ أَحَدٌ) جُزءًا من القرآنِ)) ، وقيل أن السبب في أنها تعدل ثلث القرآن أنها تضمنت اسم الله الصمد وهو لم يذكر في غيرها من السور.

جاء في سبب نزول هذه السورة ما رواه أحمد والترمذي أن المشركين قالوا للنبي ﷺ انسب لنا ربك فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ إلى آخر السورة، وقد ذكر بعض المفسرين عن عكرمة أنه قال: لما قالت اليهود نحن نعبد عزير ابن الله وقالت النصارى نحن نعبد المسيح ابن الله وقالت المجوس نحن نعبد الشمس والقمر وقال المشركون نحن نعبد الأوثان أنزل الله عز وجل قل هو الله أحد.

هذه السورة معناها على وجه الإجمال قوله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الله هو المألوه ومعنى المألوه يعني المعبود واشتقاقه على المشهور عند أهل العلم من أله يأله إلهة يعني عبد يعبد عبادة، أحد اسم من أسماء الله تعالى جاء في هذه السورة وجاء في حديث عند أصحاب السنن ((اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الأحد

الصمد)) وأصل أحد من وحد ثم أبدلت الواو همزة فصار أحد ومعنى أحد يعني لا ثاني له ولا نظير له، ومن أسماء الله الواحد وقيل إن أحد وواحد بمعنى واحد معناهما واحد ويدل عليه قراءة ابن مسعود قل هو الله الواحد، وقيل أن بينهما فرق والفرق بينهما أن الواحد يسمى أو يوصف به غير الله فيقال رجل واحد أما الأحد فلا يوصف به إلا الله تعالى فلا يقال رجل أحد.

قوله عز وجل ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ المشهور أن معنى الصمد الذي يصمد إليه في الحوائج وقد روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل أن الصمد السيد الذي انتهى سؤدده وقيل الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال وقيل المستغني عن كل أحد المحتاج إليه كل أحد وقيل المقصود في الرغائب المستعان به في المصائب وقيل الباقي بعد خلقه وقيل الذي ليس فوقه أحد وقيل الذي لا تعتريه الآفات وقيل الذي لا عيب فيه، كل هذه الأقوال وغيرها جاءت عن الصحابة والتابعين وغيرهم من أئمة التفسير، وقد قال أبو القاسم الطبراني بعد إيراده لأقوال المفسرين في تفسير أو بيان معنى الصمد قال بعد إيراده لهذه الأقوال: كل هذه صحيحة وهي صفات ربنا تبارك وتعالى.

قوله عز وجل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ رد على من نسبوا الولد لله من النصارى واليهود والمشركين.

قوله عز وجل ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ الكفؤ هو النظير فليس له سبحانه نظير كما قال عز وجل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وقال سبحانه ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤] وقال تعالى ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] وهذا استفهام بمعنى النفي يعني لا تعلم له سميًا يعني مكافئًا ونظيرًا.

هذه السورة العظيمة تشتمل على لطائف، **اللطيفة الأولى** ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أقام الله تعالى الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أحديته واستحقاقه للألوهية دون ما سواه كما قال عز وجل ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] وقال سبحانه ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٢] وقال عز وجل ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١].

اللطيفة الثانية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ نفي للإلهية عما سوى الله تعالى، فالله هو المعبود وحده ولا تصلح القلوب ولا ترتاح الأفئدة ولا تطمئن النفوس ولا تستقيم القلوب إلا عندما يكون الله هو المألوه المعبود محبة وخوفًا ورجاءً وتعظيمًا.

اللطيفة الثالثة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ كأن الآية رتبت على وحدانيته ألوهيته، فالله عز وجل هو المعبود لأنه الأحد في ملكه والأحد في تصرفه والأحد في جلاله فلا رب سواه ولا خالق غيره.

اللطيفة الرابعة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم أتبعها سبحانه بقوله ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ إشارة إلى أن من دلائل وأدلة ألوهيته ما تجده القلوب من التعلق بالله عند المصائب واللجوء إليه عند النوائب كما قال تعالى ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣] وكما قال سبحانه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:٦٢].

اللطيفة الخامسة ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ هو الذي تصمد إليه الخلائق عند الشدائد والمضائق، لكمال غناه وعظم جوده وواسع عطائه وتمام كرمه.

اللطيفة السادسة ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ إبطال لعقائد المنحرفين الذين نسبوا الولد إلى الله تعالى، كالنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله واليهود الذين قالوا عزير ابن الله والعرب الذين قالوا الملائكة بنات الله، وقد أبطل الله هذه العقيدة الفاسدة من وجوه، الوجه الأول أن الولد يتخذ للحاجة والله سبحانه غير محتاج لذلك بل هو الغني كما قال سبحانه ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس:٦٨] ، الوجه الثاني أن جميع الخلق عباد لله والعبودية تنافي البنوة كما قال سبحانه ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٢-٩٣] ، الوجه الثالث أنه لا يكون ولد إلا لمن كانت له زوجة والله عز وجل نزه نفسه عن ذلك فقال ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١].

اللطيفة السابعة قال الله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ كرر الاسم الجليل الله في هاتين الآيتين الله أحد الله الصمد إشعار بأن من لم يتصف بالأحدية والصمدية فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية.

اللطيفة الثامنة نفى الرب تبارك وتعالى في هذه السورة جميع أنواع الشرك فنفى الشرك في الألوهية بقوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ونفى الشرك في الربوبية بقوله ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ونفى الشرك في الأسماء والصفات بقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

اللطيفة التاسعة أول السورة يدل على أنه واحد والصمد يدل على أنه كريم رحيم لأنه لا يصمد إليه حتى يكون محسنًا، ودل قوله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ على كمال غناه ودل قوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ على أنه لا شيء مثله، فمن قرأ هذه السورة وهو عارف بمعناها مدرك لما تتضمنه من المعاني العظيمة فإنه سيكون لها أثر على قلبه وعلى حاله في زيادة تعلقه بالله تعالى وتحقيق إخلاصه وعبوديته لربه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.